الشاعر أحمد ناصر القطيبي.. شاعر الكلمة والمواقف

الأمنـاء/ كتـب/ د. حافـظ قاسم القطيبي:

يعد الشـاعر أحمد ناصر أحمد القطيبي- رحمة الله تغشـاه- من أبرز شـعراء الجنوب الشـعبيين في مرحلـة قبل الاسـتقلال إلى التسـعينيات من القرن العشرين، وقد ساجل عددًا من الشـعراء من مختلـف المحافظات، فانتشر صيته في أغلب مناطق الجنوب وتناقل الناس شـعره، وقد اقترن شعره بأحداث وقعت أو تأمُّـل في الحياة وتقلباتها، تعبِّر عن مواقف اجتماعية أو سياسية أو قصائد وجدانية.

لقد نظم الشـاعر أحمد نـاصر القطيبي الشـعرَ وهو في سـن مبكرة واستمر إلى قبل وفاته بيوم واحد، فقد امتلك موهبة شـعرية متدفقة، يحمل شـعره جزءًا من ذاكرة الأحداث والتاريـخ والمكان في ردفـان والوطن عامة، نجد فيه أصالة الإنسـان ومشاعره الوجدانية والإنسانية وقيم الشهامة والإباء والرفض.

وفي هذه المقالة نقدم لمحة من سيرة هذا الشـاعر، وقد تكرم ولده الأسـتاذ ناصر أحمد بتزويدنا بها.

الشـاعر أحمد ناصر أحمد حسن الوحّدي القطيبي، ولد في العام 1917 في منطقة وحّدة بلاد القطيبي ردفان، نشـأ يتيـما فقد توفي والده وهو في السادسـة من عمره، وانتقل مع والدته وإخوانه للعيش في منطقة المصراح عند خاله، وتعلم مبادئ القراءة والكتابة في مسجد منطقة بجير. وفي 6/ 5/ 1936 التحق بالخدمة العسـكرية في صفوف ما كان يسـمى آنذاك جيش الليوي وهو في سـن مبكـرة من العمر حيـث لم يتجاوز العشرين عامـا، وقد واصل دراسته أثناء خدمته العسكرية، فتعلم القراءة والكتابة والحسـاب، وتلقى العديد من الدورات التدريبية في مجال الاتصالات اللاسلكية وكان متفوقا في دراسته ومثابرا في عمله.

وقد حصل على دورة تخصصية في مجال الاتصالات وتخرج منها بدرجـة ممتاز ورقي إلى رتبة ملازم في عام 1940، وفي عام 1957 أحيـل الى التقاعد وهو برتبـة ملازم أول. وقد عمل مديرا لمالية إدارة القطيبي حتى عام 1968، ثم عمل موظفا حكوميا في لجان التطوير في مديرية ردفان ثم في إدارة الطرقات والأشـغال مديرية ردفان المسماة حينها المديرية الشرقية حتى أحيل الى التقاعد عـام 1994. توفي في صبيحة يوم السبت 22/10/1994، ودفن في منطقة المصراح بردفان.

لقد كان له إسـهامات كبـيرة في اللجان الزراعية ولجان الدفاع الشعبي واتحاد الفلاحين وكذلـك في الجانـب الاجتماعـي بالمنطقة والمديرية، لقد صقلتـه التجارب وحنكته الأيام فتميز بالحكمة والهدوء والرصانة.

تمتع الشاعر أحمد ناصر القطيبي بثقافة دينية وعامة، فقـد كان حريصا على الاطلاع المتنوع، ومتابعا ومسـتمعا دائما للأخبار من مختلف محطـات الإذاعات المحليـة والعالمية فاكتسـب ثقافة كبيرة ومعرفة واسـعة، كان لهما أثر في شعره.

ولا شك في أن الشعر الشـعبي له أهمية كبـيرة في التأثـير في الناس، فهـو يصوغ الاتجاهات ويصنع المواقف، لسـهولة ألفاظه وقربها لفهـم الناس، كما أنـه يحمل دلالات عميقة، وشاعرنا أحمد ناصر القطيبي، رحمة الله تغشـاه، تميز شـعره بقـوة التأثير في الناس، وقد تناول عددا من الموضوعات، منها: السياسـية والاجتماعية والوجدانية والدينية، وله قصائد غناها عدد من الفنانين منها: باسم اللـه أبدا على حرف الألف.. سـبحان من ليس وعده يخلفه.

وقصيدة: يا الله يا من على العرش اعتليت.

وقد طغى الجانب السياسي على كثير من قصائده نظرا لتفاعله مـع الأحداث والوقائع، فكان المتحدث عن الناس وهمومهم ومعاناتهم، فتناقلوا شعره وحفظوه وأضحوا يستشهدون به في مواقف ومناسبات كثيرة إلى يومنا هذا، فكان شعره صورة للذاكرة الشعبية في ردفان وغيرها من المناطق..

ويمكن أن أقسم شعره الى مراحل: مرحلة قبـل الاسـتقلال، ومرحلة بعد الاسـتقلال، ومرحلة بعد الوحدة.

مرحلة قبل الاسـتقلال: وهـي المرحلة الأولى من تجربته الشـعرية. فقد قال الشعر في وقـت مبكر من حياته، ومـع أنه لم يبلغ الخامسـة والعشرين من العمر إلا أنه يمتلك قوة شـاعرية ووعيا كبيرا، ولم تثنه وظيفته في السـلك العسـكري في التعبير عن رفضه لسياسـة المسـتعمر، بل جاهر في المقاومة وتأييد حركات التمرد والثورة.

ويبدو أن أول قصيدة نطالعها في تجربته الشـعرية؛ قصيدة عن معركة الحمراء في بلاد القطيبـي بردفان، فقد كانـت المعركة رفضا لوجـود القـوات البريطانيـة وكان ذلك في بداية أربعينيات القـرن العشرين، والقصيدة جواب على الشـاعر محمد بن ناصر العولقي، ومطلعها:

نبدأ بمن عينه علينـا ناظره... ناظر على خلقه وساهر لا ينام

ونقتطف منها بعض الأبيات التي تناسب هذا المقام، وهي تلـك الأبيات التي يفتخر فيها الشاعر بأهله وقبيلته ومواقفهم البطولية في كل المراحل وعشقهم للتضحية والمقاومة،

ثم يقول فيها:

ردفان له عادة يسيها تذكرة.. وأهله تربوا عل الحرابة والصدام

ردفان صيته بالسنين الغابره .. قد حارب التركي ورد جيش الإمام

شف من عبر في أرضنا بانعشره.. عاداتنا ندهم ونزقر بالخطام

أرض القطيبـي من دخلها تقبره.. ما شي حنق من ضرب لمقاص النمام

نحن جهنم من قربنا نزفره.. لما يحاسـب في ذنوبه بالتمام

وإبليس سينا له صمل دي تزجره .. وندق لحومه هي ودمه والعظام

كما قال قصيدة يمدح فيها الشهيد البطل محمد بن عـواس الأزرقي عندمـا قام بقتل الضابط السـياسي البريطاني (ديفي) في 17 ابريل1948م، وقد أرسلها وهو في عمله بعيدا عن أهله وقبيلته، ومنها هذه الأبيات:

كريمان رب الجود باقي لم تزل ... تعززت بالجبروت يا فرد معتلي

سـألناك تهدينا على الصالـح العمل ... وتلطف بنا من يوم هايل وطايلي

... ولمـا نصيف الليل وإن هاجسي وصل.. ولما وصل همي تفرج وشاغلي

وقلت له جب لي خبر (ديفي) نهار استوى القبل.. وقال الخبر عندك كما هو مفصلي

(ديفي) من الضالع سرح سـاقه الأجل.. سرح أرض بن عواس سياسي ومصملي

يبـا الجيد بن عواس يدخـل في الجدل.. ويؤمر بغير الحق ولا هو معولي

ويحسـب محمد مثل جلابة البصل.. وهو محرقي يقلع بنابه ويفعلي

وسـعفه علي ما عاد شي منهم خجل.. سقوا خصهم ميزر مشوك وجعبلي

كما الجيد بن عواس بـا يضرب المثل.. له البيض تحجر ناكسات المجاولي

ويا مرسلي قم اترك النوم والكسل.. وبلغ المرقوم بادر وعاجلي

تصل لا بلد محمي بجثمود من عول.. بلاد القطيبي حد كمن مقاتلي

نمارة تـزوع الحيـد وتورع السـيل .. مكاريبهم للخصم تصلي وتشعلي

ردفان لا له دَين ما يقبل المهل.. يسرح على خصمه بعايق وزاملي

وفي قصيدة مرسلة للقائد عبدالقادر بن شايع الذي كان مساعد الضابط السياسي في ردفان عندما طلب اللقاء بمشايخ القطيبي عند

اندلاع الثـورة في 14 أكتوبر 1963، ويبدو أنه كان لتدارس الوضع، يقول:

طلبناك يامن بيدك الضيق والنفس.. وعالم ضمايرالعبد ذي فيه وسوسه

يا مخضر الأشجار من بعد ما تبس .. متى رشت الأمطار بأوراقها أولسه

أعوذ بـرب الناس من شر ذي خنس .. من إبليس دي شوره خداعة وخنوسه

أنا أسـتغفرك يا الله ما عالماً درس .. وما ينشرون العلم في كل مدرسه

ثم قال بن ناصر أنا قلبي اهتجس .. هيهات كم شعار مثلي تهجسه

وما شيء علي لوم لو قلبي انطمس .. من الهم، والدنيا كثير المعاكسه

ومها نسيت الشـعر وقلبي انعكس.. لكن فصول الشعر عندي مقرطسه

وأنا ليس متملق ولا أنا من الجسس .. ولا أساعف أهل الدس أهل الملاوسه

أنـا دوب متحفظ على منطقي وبس.. ولا اليسر بالحكمة ولا العسر فلسفه

ثم يتأسف من حالة الخلاف ويتحسر على غياب رؤوس القوم نظرا لقيام المستعمر بسجن عدد منهـم وتشرد عدد آخر، ويحذر من عواقب هذه التصرفات:

أسف من خلاف الشـور كلن به ابتخس.. وضاعوا رؤوس القوم أهل المقاوسة

فمنهم من اتشرد ومنهـم من احتبس .. رعى الله هاتاك الوجوه المنومسة

ودي حل بالسلطة على كرسيه جلس.. ولم يستشر أهل العقول المجلّسه

وضيع زمام الأمر من يده اختلس.. ومهما عقد لطراف تصبح مخلّسه

ثـم يـأتي بحكمة عميقـة الدلالـة؛ إذ يشـبه غياب رؤوس القوم والحكماء بفقدان الأضراس، فعندمـا تسـقط الأضراس لا ينفع الجَنس (اللثـة)، ولا تنفع الأضراس المصنوعة، يقول:

إذا تناثرت لضراس مـا ينفع الجَنس.. ولا ينفع التقليد صنعة ملبسه

ومن له عتـد يركب على السرج والفرس.. وتخضع له الفرسان دي هيه معنسه

ويخضع له الشجعان دي فيهم الحمس.. وسدد مشاكل بالبصر والمسايسة

يطيعون أمره مثلما قائد الحرس.. جنوده مطيعة للعمل والممارسة

ثم يوجه سـلامه لبن شـائع، مسـاعد الضابط السياسي، مشيدا به ومنبها ومحذرا له في الآن نفسه:

سلامي لبن شائع مع الفوج يوم نس.. وما الشرقية تطلع على الأرض وشمسه

ما تكلمت لكناد بصواتها الشـكس.. كما صرفها بأمشاط تخرج مخمسه

سـياسي محنك يدرس الوضع بالنفس.. يتابع الأخبار وقت المجالسه

وقل له جبل ردفان لا حـط ولا انتكس.. فهيهات ما مثله شوامخ تنكسه

فعاده طويـل الميح وعاد الطرف غطس.. في البحر من حيث النشب والمعاكسه

لكن مع الأيام والسـيرة النفس.. تحلوا مشاكل عندكم ألف هندسه

وصلوا على المختار ذي نوره اقتبس.. من العرش طه له أنوار قابسه

- وفي مرحلـة بعـد الاسـتقلال كان الشـاعر يمثل صوت المواطن في التعبير عن المعاناة ونقص الخدمـات، وكان يدعو إلى لم الشـمل والابتعاد عن الصراعات، وكان صوتا شـجاعا ينادي بمطالب واقعية وملحة تعم عامة الناس، وكان هـذا الأمر يخالف أصوات المزايدين والشـعارات الطاغية آنذاك، وكانت سلطة بعد الاسـتقلال تضيق بالصوت الآخر والرأي المتزن، فلم يتركوا هامشـا للتعبير عن الرأي، فقد تعرض شاعرنا أحمد ناصر القطيبي للسجن والمضايقات بسبب زامل قاله في إحدى مناسـبات الزواج، ينتقد فيه طريقة الجبهة القومية في إدارة شؤون الناس وعدم حرصها على الاهتمام بالأحوال المعيشية للشعب، يقول:

العام لول هل والثاني دخـل.. والقومية كادح كما احجور الخداد

الشـك ماشي شـك بتوحيد القوى.. وإلا طلبنا الله وثورتنا تعاد

وفي عام سبتمبر 1983 حضرت عدد من قيادات الحزب حفل زواج الكابتن محمد مقبل في منطقـة المصراح ومن بين هـذه القيادات علي عنتر وعلي شـائع وعلي البيض، وكانت القصيدة ترحيبية بهذه القيادات لكنه لم يجامل ولم ينس التعبـير عن هموم الناس ومطالبها، مبينا افتقار ردفان لأبسط الخدمات على الرغم أنها قدمت تضحيات جسيمة في سبيل العيش بكرامـة، فلا يوجد في ردفان مستشـفى عدا العيادة التي تأسست أيام الاستعمار البريطاني في عهد الضابط السـياسي (ميلن) ومن بعده (تمبلن)، ولا كهرباء ولا ماء ولا طريق، ويطلق الشـاعر على هذه القيـادات (ترابل علي) أي ثلاثي علي، وهذا يدل عـلى ثقافته الإنجليزية وأيضا يسـتخدم مصطلحات طبية، فالشاعر يصف معاناة الناس الأليمة، لنقرأ الأبيات:

يا مرحبا حيـا ملء وادي سـبأ... وزن الشوامخ دي قممها مستقيم

ترحيب من الأعماق ما شي به نفاق... حيا بكم يا قادة الشعب العظيم

با كرر الترحيب مخطئ أو مصيب ... رحب بكم ردفان ذي سرمد يتيم

يتيم من الإنجاز وأبسط لعتزاز... هل صح نبقى أعواز وأنتم في نعيم؟!

أمراضنـا ماتوا وبعض اتشـمتوا ... ولا نظروا حالة مصحتنا الذميم

ذي من قبـل (ميلن) وبعده (تمبلن) ... لا طب يجد فيها ولا فيها حكيم

من جاب طفله فوف جنبه يحمله ... قالوا الدواء بالصيدلية يا غشيم

حبوب نوفلجين فيها واسبرين ... ما ينفع المسكين ذي جسمه أليم

وإلى متى نبقى على هذا الشـقاء ... هل شي أمل نحصل من الراحة قسيم

ثمان وأربع فوق أربع يا جدع ... سـنين مرت والإفادة سين جيم

لا كهربـاء معنـا ولا ماء جاءنـا ...كنا ومازلنا بحالتنا القديم

بالرغم إن ردفان في حكم المكان ... قريب من شمسان لكنه شويم

(ترابل) علي جـاؤوا قرانا الداخلي ... في منطقة ذي منها صر الشريم

من حيث راجح دمه الغالي سفح... سجل بدمه في صفا صارم صميم

يا هل ترى ما هي نتيجة مصرعه.. تحرير واستقلال للشعب الكريم!!

ختم الـكلام التام يا قادة كرام... حيا بكم ما هزت أفواج النسيم

وفي قوله (من حيث راجـح دمه الغالي سفح) يشير إلى سقوط أول شهيد للثورة، وهو راجح بن غالب لبـوزة، في جبل البدوي المطل على وادي المصراح .

وفي المراحل التالية ظل شـاعرنا يعبر عن صوت النـاس وهمومهم، وكانـت لديه رؤية ثاقبة للأوضاع، ويـدرك عواقب الأمور، وينتقد سـلوكيات الساسـة، فهذه قصيدة قالها في 10/12/1993 :

أصحابنا ركبونا فوق صعب أعرج... وهم على الخيل بيحفون من طارف

الجوف شـلوا خيوله كلها مسرج ... مع خيول العوالق بالثمن كالف

خلـوا بنوك اليمـن قـردوح بيدحرج... وهربوها سويسرا ذي قدة آلف

جاءوا طرق شـايكة صعيبة المخرج... كم باتداري رجل مطشوش أو سارف

والشـعب صامت بيراقب وهو محرج... محرج بدي أسسوا التوحيد متناصف

قولوا لمن قـال بافالج ومـا يفلج... هذا الخطأ لا محالة رأي متخالف

.. من خـان لا كان له درجة عدى مدرج .. من فوق هياف شاهق يلطمه صاعف

ومن قصائده التي تعـبر عن مواقفه من تصرفات المسـؤولين وفسادهم، عندما هرولوا وراء الأموال والاستعراض الزائف في حين كان الشعب يعاني سوء المعيشـة وارتفاع الأسعار فقد أضاعوا حقوق الشـعب ومكتسباته، هذه القصيدة القوية يبدو أنها كانت موجهة للقيادة عقـب الوحدة تقريبا في عـام 1992، وكأنها تحاكي واقعنا اليوم، يقول، رحمه الله:

دولـة العـدل والقانون راكـب فرس... والفرس لاجفل في راكبه بايدوسه

ومن على كرسي السلطة طلع وارتوس ... قل له الظلم والظالم مؤكد نكوسه

ومن معه قسـم في شركه وخزنة بيس... قل له الشعب من لسعار ضاقت نفوسه

با يحاسـب بذنبه من رشي واختلس... لا تقولون هذا الشعب حامل نحوسه

ومن معه طقم أو ألفين بعده حرس... قد سبق للإمام أحمد وجنه حروسه

لكن الجن ضاعت كلها والحرس ... بعدما الشعب مل حكمه وظلمة حبوسه

جاه علفـي وقال الظلـم لا هنه وبس... شربه كأس حامي حيث طير نعوسه

حاذروا قبل طعم الحلـو يرجع هدس... والمثل قال: شف حبك دماره بسوسه

حافظوا على المكاسب وعادكم في نفس... قبل ما يصبح المقدام يخلع لبوسه

ونختم هـذه الوقفة مع الشـاعر أحمد ناصر القطيبي بقصيدة من قصائده الوجدانية الجميلة:

أنا أسـالك يا إلهي لا يـلاني شر ... تغفر ذنوبي وتسكني بعدناني

من بعد ذلحين قال المولعي نشّر ... وطاب لي الشوق وزيدني بألحاني

حنبت باثنين ذا يسـلى وذا يضجر ... ولا سلي ذاك حانق مني الثاني

هذا لبس ثوب وهذا أردف الشـيذر ... هذا متلل وذاك ثوب بيحاني

هذا بن تسـع وأربع وهذا بـن ثلتعشر... مكتوب تاريخهم في شهر شعباني

هذا زبرجد طبخ بالهيل والسـكر... وهذا دواء ينفعك يا قلب وجعاني

هذا عسل علب حالي والعنب لخضر ... هذا مصفى وهذا مرح دوعاني

.. هذا جعيده سيّن منسـوع مثل الجر... وهذا جعيده منسع شغل سيواني

راح الضنى قال بن ناصر وراح الكر... من بعد ما جاب المرش بيده ورشاني.

رحـم الله الشـاعر الكبـير أحمد ناصر القطيبـي فقد كان شـعره ذاكـرة للأحداث والتاريخ، ومعبرا عن هموم الناس ومعاناتهم، ومسـجلا العديد من المواقف تجـاه عدد من القضايا، لذلك فإن إنتاجه الشـعري يسـتحق الجمع والتوثيق والنشر.